الفرس في شعر علقمة بن عبدة الفحل
جبر حياة الانفصام

أ – دهينة ابتسام
قسم الأدب العربي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة محمد خيضر بسكرة

إن النص الجاهلي مستودع أسرار، وللولوج إلى قلب هذا العالم علينا أن نقف وقفات متأنية لاستكناه الروح الحقة التي حركت وجدان الشاعر وجعلته يتخبط بين متناقضات هذا الوجود، ويحتمي بكل ما يحس فيه دفق القوة والانتصار، ولما كان الأمر كان لحضور الحيوان أهمية بالغة في حياة الشاعر، إذ لم يبق له إلا الذكريات، ومجموعة من الحيوانات التي تربعت على عرش تلك الديار الزائلة، ولذلك بدا الحيوان قويا وارثا لبقاء حياة الإنسان، ويسعى الشاعر من خلاله إلى استعادة ماضيه الجميل، وفردوسه المفقود.

لذا راح علقمة بن عبدة الفحل يصور الحيوانات في ديوانه ويصنفها إلى نوعين، نوع أليف يتمثل في الحصان والناقة، وآخر وحشي بري يتمثل في الظليم والبقر الوحشي مثلا. ولا يخضع النوع الأول لمأساوية التجربة التي يعيشها الشاعر، أو يكون موضوعا لفاعلية الزمن وللتغير المدمر، أما النوع الثاني: الثور الوحشي والبقر الوحشي، النعام والظباء أحيانا، فإنه مجلي فاعلية الزمن التدميرية وحتمية الصراع المستمر من أجل البقاء.

يحيلنا الحيوان _ إذن _ إلى أعماق الشاعر، بل قد يكون الطريق الموصل إلى العقل الباطن له، أو لما يدور بخلد الجماعة.

ولاكتناه عالم الشاعر الشعري وتجلية رؤياه القابعة وراء قناع الحيوان، اخترنا صورة الفرس لتبيان بعض هذه التشظيات التي عانى منها الشاعر الجاهلي.

لقد احتفل الشاعر بحصانه احتفالا كبيرا جاعلا منه "أنموذجا "، فلم يترك جانبا جسديا إلا ووصفه، ولم يقف عند وصف المظاهر الجسدية، إنما راح يكشف عن صفاته المعنوية، قال الشاعر[1]:

وَقَدْ أَغْتَدي والطَيْرُ في وُكُناتِها   وماءُ النَّدى يجري على كلِّ مِذنَبِ

بمنجرد قيــد الأوابد لاحه طراد الـهـوادي كل شأو مغرب

بغَوجٍ لَبانُــهُ يُتَــمُّ بَريمـهُ على نَفْثِ راقٍ خَشيَةَ العينِ مُجلِبِ

كميت كلون الأرجوان نشرته لبيع الرداء في الصوان المكعب

ممر كعقدالأنـدري يزينـه مع العتق خلق مفعم غيرجأنب

لـه حرتان تعرف العتق فيهما كسامعتـي مذعورة وسط رب

وجوف هواء تحت متن كأنه من الهضبة الخلقاء زحلوق ملعب

قطاة ككردوس المحالة أشرفت إلى سنـد مثل الغبيط المذأب

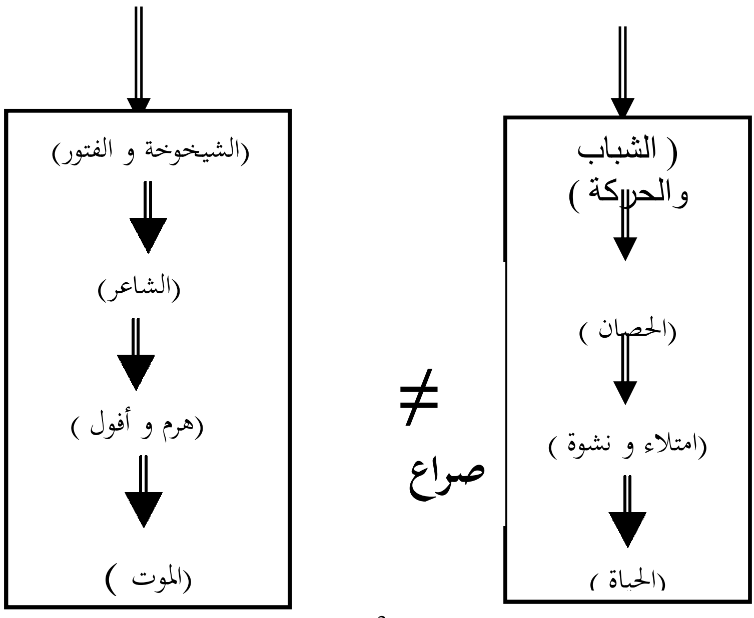
إن الشاعر من خلال هذه الأبيات خلق قوة جديدة يافعة تعارض زمن الشيخوخة والشيب، فقد اختار حصانا قويا نشيطا يمتاز بالحركية، يغدو في (غبشة الفجر)، والمؤشر الزمني الذي دل على ذلك الفعل (أغتدي)،(أي بكرة)، وكذلك عبارة (الطير في وكناتها)، فأي نشاط هذا الذي ينافس فيه الطيور؟

والمفارقة البارزة في هذا البيت هو ربطه صورة الفرس بالماء. ونحن نعلم أن الماء كان يعني للجاهلي في أغلب الأحيان الحياة، كما يعد رمزا للطهارة ودليلا أو إعلانا على البراءة. و"علقمة" بذلك أراد التطهر من تلك الصفة اللصيقة بالطير، إذا نظرنا لها من منظور سلبي؛ أي إنها الوبال واللعنات التي ظلت تطارد أحبة الشاعر الظاعنين وتناوش هوادجها الحمر ظنا منها أنها لحم.

والفرس حينذاك، راح يحلق بعيدا ضامرا هزيلا يجاري الخيل التي معه، ويتقدمها في مشهد جمالي يحوي مفارقة أسلوبية رائعة، فهو يصف فرسه بكل الصفات الكاملة: إنه سليم البدن، وقوي، وسريع، وممتلئ، وخالي من العيوب، وكأننا بالشاعر قد رقاه وعوذه (على نفث راق خشية العين مجلب) حتى لا يصاب بأذى تلك القوى الشريرة التي كانت غافلة عنه في وكناتها، وهو بتحصينه لفرسه إنما يحصن ذاته ويحميها. لقد جعل الشاعر من فرسه أنموذجا ومثالا، إنه فرس شاب يحمل كل صفات الفتوة.

ليسترسل علقمة بعدها في ذكر الصفات الجسدية لـهذا الحيوان، فهو(قصير الشعر، سريع العدو، واسع الصدر، لونه في حمرة تلوح إلى السواد، مكتنز اللحم..)، كما أنه حذر في عدوه، فصوره في جو يفيض بالحركة والحيوية والاندفاع، مانحا إياه صفات جسدية مميزة، وهذه الصفات– حسب اعتقادنا– ما هي إلا إسقاطات لصفات تمناها الشاعر الشيخ؛ فالفرس المعني بالوصف في هذه الأبيات فرس شاب تحركه روح الشباب إنه" حصن حياته ومنطلق

بقائه، وركيزة صموده وآلة صيده "[2]، مندفع منطلق، يقابل صورة الانطفاء المتمثلة في الشيب، وشرخ الشباب. والترسيمة الآتية توضح ذلك نسبيا :



يواصل الشاعر واصفا فرسه فيقول[3]:

إذا ما اقتنصنا لم نخاتلْ بجُنّـةٍ ولكنْ نُنادي مِنْ بعيدٍ: أَلاَ ارْكَبِ
أخا ثِقَةٍ لاَ يلعنُ الحيُّ شَخصَهُ صبوراً على العلاَّتِ غيرُ مُسبَّبِ
إذَا أنفدوا زادًا فإنَّ عِنانهُ وأكرُعَـهُ مستعملاً خيرُ مكسبِ

امتلك فرس الشاعر صفات نبيلة تدل على الشجاعة، فهو يبين إمكانية وصوله للصيد عن طريق المجاهرة لا عن طريق المراوغة (لم نخاتل..)، والصيد الذي يهم الشاعر هو التغلب على سلطة الدهر دون مباغتة، كما يفعل هو(الدهر)، وإضافة إلى تلك الصفات فهو مصدر ثقة يوثق بجريه، فلا يخذل راكبه، صابر طامح إلى غايته ينحدر من أصل كريم، يشارك القبيلة همومها، فهو حمال محامل، ومطعم الجياع إذا ما عزّ الزاد(إذا أنفدوا زادا).

إنها الصورة المثالية التي ينشدها الشاعر في عالمه الهش المليء بالمآسي والتشظي، وعندما لم يجد لها بدا من التحقق جعلها تتجسد في عالم الحيوان، فكان

" الفرس– ذلك الإنسان الكامل– صورة لما يتشبث به الشاعر أملا في المستقبل ورغبة في قدر أتم من المناعة والحصانة "[4].

عندما اختار الشاعر صفات حصانه، اختار معها الأفعال التي تدل على الحركة، فبعد العملية الإحصائية التي قمنا بها لأفعال هذا المقطع، وجدنا أن أفعال المضارعة قد طغت على أفعال المضي، إذ بلغت(تسعة عشر فعلا) بالتقريب، بينما الماضية كانت (أربعة عشر فعلا)، وهذا يكشف عن رغبة الشاعر في التغيير والبحث عن الدفق الشعوري والشعري في الآن معا، ومن أفعال المضارعة الدالة على الحركية(أغتدي، يتم، يزينه، تعرف، يغشى، يفلقن، يرتعين...).

وفي غمرة هذا الصراع، وهذه الاحتفالية يراود الشاعر شعور الألم الذي خلفته المرأة من خلال منبه خارجي تمثل في صورة العذارى، حيث يقول[5] :

رَأينا شياهاً يرتَعينَ خُميلةً كمشْيِ العذَارى في الُملاء الُمهدَّب

فبينًا تمارينا وعقدُ عِذارِه خرجْن كغيْثٍ علينا كالجُمانِ المثَقَّبِ

فأتبعَ آثارَ الشياهِ بصادقٍ حثيثٍ كغيثِ الرائِح المتُحلِّبِ

يسترجع "علقمة" في هذه الصورة زمنا مضى تمثل في زمن الاستقرار والتجمع، فيصف البقر الوحشي في حالة تجمع مثل"الخميلة"[6]، كما شبه البقر بالعذارى، وهذه اللفظة إذا جئنا إلى شرحها في هذا المقام، وجدنها تميل إلى الجانب العقائدي[7] أكثر منها إلى الجانب اللغوي. وبما أننا ندرس زمن الصراع يحق لنا تفسيرها من هذا الجانب؛ وهو أن الشاعر عندما عجز عن وصال تلك المحبوبة، يظهر الحصان ليواجه العذارى ويتعقبهن أو يدركهن،على حد قول الشاعر :

فأدركَهُنَّ ثَانِيًا مِنْ عِنَانِهِ يَمُرُّ كَمَرِّ الرَّائِـحِ الُمتَحلِّبِ

وما ذكر الغيث(الرائح المتحلب) إلا دليل على حياة الخصب والتجدد، وبالتالي تسنى للشاعر أن يحقق نشوته بوساطة "الحصان "،وكأنه يريد "أن يصلح معادلة الزمن بفرسه"[8] ولكنه واهم؛ لأن عجلة الزمن تدور وحلقة البداية هي نفسها حلقة النهاية، وكلها تؤدي إلى الموت و" كل مخلوق يولد ومعه إعلام بموته، وكل شيء يكتمل ويبلغ عنفوانه يؤول إلى التناقض والتلاشي" [9] لكن الشاعر الجاهلي– وعلقمة خصوصا –لا يرغب في الإذعان إلى إمرة الزمن، فتراه دائما يسعى إلى احتضان كل جميل، يتألم ولكنه يتجمل في جدل مُعبرا عن رؤية يقينية إزاء هذا الكون، متخوفا من هذا المجهول.

اكتسى الفرس بهذه المكانة قيما جمالية ودلالية تفوق الوصف، جعلت منه حيوانا أسطوريا يضاهي فرس" امرئ القيس" الأسطوري[10] الذي كان يتغنى به في كل قصيدة ينسجها، جاعلا منه ركيزة إبداعية تبوح بما يختلج نفس الشاعر، ومتنفسا يأوي إليه كلما حاصره الدهر.

ولما كان للفرس هذه المنزلة الدلالية، حق له أن يظهر في أشعار علقمة حضورا مكثفا، قد يكون من باب التقليد والمجاراة كما ذكرت بعض الروايات؛ إذ إنه لم يبدع في شيء إنما نسج على منوال امرئ القيس، وفاز في آخر المطاف بقلب" أم جندب " الحكم بينهما؛ لأنها كانت عاشقة له، ولم تحكم بعقل وحكمة[11].

وتظل هذه الأقوال مجرد آراء ألصقت بعلقمة، وقد لا نخالف الصواب إذا أوّلنا سبب حكومة أم جندب لصالح علقمة، بأنه يرجع لفحولته حقا، قبل أن يلقب بالفحل ويفوز بها.

لقد كان علقمة "فحلا" في نظرها؛ لأنها رأت فيه صفات الفارس الهادئ الرزين لا الثائر العنيف، كما رأت نفسها في صورة الفرس الذي مراه زوجها بسوطه وزجره، لذا فهي لم ترض لنفسها ولا للفرس التعرض للذل والهوان، وفضلت أن تكون حرة غير مقيدة (ثانيا من عنانه) على أن تكون مأمورة. وقد تعيدنا مثل هذه الصورة إلى صورة الناقة التي راحت ترقب صاحبها بعين شزر ضامزة، وكأنها تخشاه وتلومه في الوقت ذاته؛ لأنه لم يشفق عليها وهي المكافحة والمساندة له.

وعلى هذا الأساس، كان" الفرس" صورة للمرأة الفرس، كما كان صورة للمحارب العنيد الذي يتصدى للدهر، فيجعل من حصانه حيوانا محصنا مفعما بالقوة والامتلاء، والذي دل على ذلك النسيج الشعري الموشى بالصور الحسية الفعالة، التي جسدها "علقمة" وكأنها شريط سينمائي يضم عدة مشاهد حسية ضمنها شعوره الخفي وعواطفه المتصارعة

أوصاف الفرس ←

- منجرد
- قيد الأوابد
- لاحه (ضامر هزيل)
- بغوج لبانه
- معوذ بالتمائم (يتم بريمه على نفث راق خشية العين)

- كميت كلون الأرجوان
- ممر كعقد الأندري
- غير جأنب
- له حرتان كسامعتي مذعورة
- جوف هواء (صدر)
- زحلوق ملعب (أملس الظهر)
- قطاة ككردوس (صفته الجسمية)

←

الحيوان المثال بالنسبة للشاعر (ممتلئ بالحركة والخصب والشباب)

تتضح أمام المتمعن لهذا النسيج الشعري صورة حسية ملموسة لهذه المشاهد، فقد أجاد علقمة وصف فرسه، وكأنه رسام محترف خبير بالطبيعة تغلغل بأحاسيسه داخلها وبث فيها من روحه مكسرا بذلك الصورة العادية للفرس، فانظر إليه وهو يصور تفانيه من أجل خدمة فارسه وكرمه، الذي قد يصل به حد التضحية فيكون فداء للقوم. ومن الأمثلة قول علقمة [12]:

فوالله لولا فارسُ الجوْنِ منْهُمُ لآبوا خَزايا والإيابُ حَبيبُ
تُقدّمُه حتَّى تَغيبَ حُجُولُه وأنتَ لبِيضِ الدَّارعينَ ضُروبُ

وفارس الجون في هذين البيتين "الحارث الممدوح"، و"الجون" اسم فرسه, ونقصد به صفة من صفات الشمس لاسودادها إذا غابت حينا، ولبياضها وصفائها حينا آخر, وما ينقله ابن الأعرابي من التجون تبيض باب العروس، والتجون تسويد باب الميت. ومثل هذه الصفة ما ورد في قوله(كميت كلون الأرجوان) التي تعني بدورها السواد في الحمرة، وهي كلها كنايات لصيقة بصفات الشمس التي ترمز للحياة والإشراق.

لقد تخير الشاعر أدق الألفاظ وأعمقها، للتعبير عن مكانة هذا الحيوان في القديم. ومن أسماء الفرس وصفاته نورد قوله [13]:

وَقَدْ أَقودُ أَمَامَ الَحيِّ سَلْهَـبَةً يَهْدِي بِها نَسَبٌ في الحيِّ مَعْلُومُ
لاَ في شَظاها ولا أرساغِها عَنَتٌ ولا السَّنابِكُ أَفْناهُنَّ تَقليمُ
سُلاءَةٌ كَعَصَا النَّهدِيِّ غُلَّ بها ذوفَيئةٍ مِن نَوى قُرَّانَ معجومُ
تَتبعُ جُونًا إذا ما هيُّجَت زَجِلتْ كأنَّ دُفًّا على عَلياءَ مَهزومُ

فقد كانت الفرس سلهبة [14]، وسلاءة، وهي شوكة النخلة، شبهت بها الفرس في دقة صدرها وعظم عجزها، ويستحب هذا من إناث الخيل15؛ لأنها صلبة وحادة كأنها "حرف "، وهذا يدل على مضائها وذكائها.

وهذه صفات تكاد تكون لصيقة بالمرأة أكثر منها بالرجل، فالسلهبة جاءت مؤنثة والسلاءة مؤنثة، وضمير الغائب كان مؤنثا(بها، شظاها، أرساغها) والذي دل على أن السلاءة صفة للفرس، اللفظة التي لحقتها في البيت الموالي لها (جونا). ومن صفات الفرس أيضا قوله[16] :

يَهدي بها أكْلفُ الخدَّين مُختـبِرٌ   من الجِمال كثيرُ اللَّحمِ،عيْثُومُ

يمتاز هذا الفرس بصفة السبق والريادة، فهو يقود قطيع الإبل ويهديهم، والصفة التي جمعت بين الحيوانين(الإبل والفرس) تتمثل في اللون الذي دل عليه لفظ(الأكلف)، وهو يعني الحمرة في السواد، ومثلها لفظة(الكميت) وهو لون هذا الفرس المحنك (المختبر) على حد قول الشاعر.

إن علقمة يصف فرسه بالفحولة وكأنه يصف نفسه، ونجابة الفرس وأصالته ما هي إلا إسقاطات لذات الشاعر الطامحة إلى الارتقاء والمجد، حتى على حساب فرسه، أغلى ما يملك الجاهلي، وأصعب ما يمكن التفريط به. إنه بمثابة الهوية لصاحبه التي يمكن أن يتخلى عنها لإظهار شهامته وكرمه عندما يتعسر الحال على القوم.

والفرس هذا الحيوان الذي يصغي ولا يتكلم، يستجيب لطلب صاحبه بكل اعتزاز وأنفة ليقدم " ذات نفسه، لا يبقي منها شيئا، فكان الفرس المثل الحقيقي للرجل الكريم [17]، ومن ذلك قوله[18]:

وَقَدْ يَسرْتُ إذا الجُوعُ كُلّفه   مُعقَّبٌ مِنْ قِداحِ النَّبعِ مَقْرومُ
لَو يَيْسِرونَ بخيلٍ قد يَسَرتُ بها   وكلُّ ما يَسرَ الأقوامُ مغرومُ

يستظهر الشاعر كرمه وشجاعته من خلال استعماله للميسر جاعلا من فرسه الهدف الثمين المقصود، أو الأضحية التي تساق للإطعام راضية، ملبية نداء المجتمع، واهبة نفسها دون أن تنتظر مقابلا، والشاعر كان أول الياسرين لأنه يقول: لو ييسرون بخيل.. قد يسرت بها؛ يعني أنه سبقهم في الإنجاز, أو كان الأكرم بمبادرته القمار مظهرا لشهامته وشجاعته أمام قومه

ونرى في ضوء ما تقدم، أن الشاعر كان ينشد الحياة والاستمرارية جاعلا من الفرس بابا للنصر أو وسيلة لغايته. إنه ذاك الإنسان الذي نحاول من خلاله استقصاء بعض رموزه، في الشعر الجاهلي.

وصفوة القول: إن علقمة قدم عالما جماليا متضمنا موقفه الفلسفي، فعبر عن ذلك بمشاعر صادقة اختلجت نفسيته وجسدت توجسه من المصير الذي كان هاجسه وهاجس الجماعة على حد سواء. فهي –إذن – مواقف مشتركة تمثل موقفا إنسانيا مشتركا.

الهوامش:

1- علقمة بن عبدة الفحل: شرح الديوان، للأعلم الشنتمري، تقديم، حنا ناصرحتي، دار الكتاب العربي، ط1،1993، ص60/58.

2- كمال أبوديب: الرؤى المقنعة، ص401.

3- علقمة بن عبدة: شرح الديوان، ص61.

4- مصطفى ناصف: قراءة ثانية لشعرنا القديم، ص87.

5- علقمة بن عبدة: شرح الديوان، ص61.

6- الخميلة: رملة فيها شجر، وهي نبات لين. ينظر:ابن منظور، لسان العرب، مادة "خمل"، مج 11، ص221

7- وهو ما تصوره بعض الدارسين بيوتا للجاهلية تسمى بيوت العذارى، كانت العذارى تقمن على خدمة معبوداتها فيه، فارتبط معناها بالطقوس الدينية. ينظر:عبد الله الفيفي: مفاتيح القصيدة الجاهلية، النادي الأدبي الثقافي، جدة، السعودية, ط1 2001، ص96/97.

8- عبد الله الفيفي: مفاتيح القصيدة الجاهلية، ص 113

9- فوزي عيسى: النص الشعري وآليات القراءة، منشأة المعارف، الإسكندرية- مصر، (دط)، (دت)، ص 46.

10- مصطفى ناصف: قراءة ثانية لشعرنا القديم، ص 86.

11- مصطفى صادق الرافعي: تاريخ الأدب العربي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ج 3، ص 166،167.

12- علقمة : شرح الديوان، ص 29.

13- ابن منظور: لسان العرب، مادة "جون "، مج 13، ص 101.

علقمة :شرح الديوان، ص 48،49.

14- السلهبة : الفرس الطويلة السريعة التي تقود قطيع الإبل وتهديه. ابن منظور: لسان العرب، مج1، ص 474.

15- علقمة : شرح الديوان، ص49.

16- المرجع نفسه، ص 50.

17- مصطفى ناصف: قراءة ثانية لشعرنا القديم، ص 86.

18- علقمة : شرح الديوان، ص51.